مزامير

للنفس العربية

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

٢ — غول العهد الأول (١)

كان في العهد الأول للعربية « غول » عجوز شوهاء، عُمِّرت هناك دهراً طويلاً تأكل أكباد الرجال بالحقد والضغينة والحسد والأنانية والتفرد، وتلعب بقلوبهم، تتخذ منها عقوداً وقلائد، وتفترس القبائل، إذ تغري بينها العداوة والبغضاء، فتوقد نيران الحرب الطاحنة لتلغ في دماء الجميع: القاتل والمقتول، والخاذل والمخذول ...

وقد اتخذوها إلهةً معبودةً وقدموا لها القرابين من دماء الأحرار، وزينوا عرشها بجماجم الشباب المفتون دائماً بالبطش والحرب، وأنشدوها الأشعار، واجتلبوا لها الأسمار، وقرعوا الطبول، ونفخوا الزمور ...

ما تركت فيهم شاباً يكتهل أو كهلاً يشيخ؛ فكبدها عطشى مخلوقة من نهم الرمال، وجشعها الدم المسفوح والدمع المنضوح ... فلم تلكُ تبقي للحياة إلا النساء والأطفال والمستضعفين، من الذين يقال فيهم: بقايا السيف، وطلقاء عفو القادرين ...

وكان لها كأسان: تتلقى في إحداهما دم الرجال، وفي الأخرى دمع النساء على الرجال ... ثم تمزج وتشرب وتعربد وتقهقه ... كاشفة عن أنيابها الزُّرق المسنونة ... !

* * *

تلك هي الغُرقة! حليلة الشيطان الحظيَّة ... يقدمها بين يدي الجليل الخطير من كيده، ورصدها لتحطيم الشأن العظيم في حياة الإنسان غريمه ... أخرجه بها من الجنة حين فرق بين هوى آدم وحواء ووصايا ربهما، فأزلَّهما ... فهبطا إلى الأرض للمحنة والعناء ... فكانت في يده مفتاحاً عريقاً يفتح به قلوب بني آدم للشر، ويغلق به أبواب الخير ...

وقد أسكنها قلب الجزيرة العربية، وأوصاها ألا تترك قلوب هذه الأمة تجتمع وشملها يلتئم وذكاءها الخارق وبيانها الحاذق يبسران لما خلقا من أجله؛ إذ كان يعلم أن وثيقة ملاءمته وبيان خدائعه للنفس البشرية، ستكتب بقلم هذه الأمة، وتسجل في « كتابها »، وتنزل على قلب أحد أبنائها؛ فاستجمع لها كل خباثته ومكايده، واستعان حليلته وأرصدها لها بكل سبيل، وفتنها بأكرم خصالها: الشجاعة والكرم والبيان!

حوَّل الشجاعة إلى وحشية وإسراف في سفك الدماء، كأن ذلك حرفة ...

وحوَّل الكرم إلى إسراف في مقومات الحياة وتفريط في بنائها المادي، حتى لا يحصل تمدن فيستقر السلام، فيكون وراءه عمران مستفحل وخدمة باقية في القريات والأعقاب، للتحضير والترقية والتهذيب ...

وحول البيان إلى شقاشق تهدر ثم تضيع، وأناشيد ترسل فيما لم تخلق له؛ إذ تسجل المخازي وتعرض العورات على الأسماع، وتهيم بأصحابها في أودية الخيال ...

وكان يعلم أن الظلم والشرك والعبودية والجهالة — وتلك هي قوائم عرشه — ستهدم بأيدي هذه الأمة، وأن آلاهيته وتماثيله التي كان يملأ بها معابد الأقوام وجوانح إنسانية الشرق والغرب ستتركها معاول العرب حطاماً وجذاذاً ... فجعل من بينها سداً ومن خلفها سداً، وغشى أبصارها عن إدراك مواهبها ومكارمها وما عندها من الفطرة الصادقة. ووضع همه الأول في تفريق قلوبها وتمزيق وحدتها، ووسوس لكل قبيلة أنها

(١) انظر العدد ٣٥٥ من « الرسالة »

أمة لها دم خاص منحدر من ماء السماء وضياء النجوم ... وإلى كل فرد أنه خير هذه الأمة، وأنه عَلَمها المفرد، وبدرها والفرقد! ففي لنفسه وشرب على هواها مع النجوم في ظلمات الليل، ومع الشمس والشياه واليمران في مراعي الصحراء ...

وفي الأرض أمامه سعة ومذهب لكل من أراد الاستقلال والتملك ...

وفي السماء هول وعظمة يغريانه بمد آفاق نفسه كما يشتهي ...

وفي القلب الإنساني حطب ولهب لكل فرقة ولكل شرود وجموح فلا عليه أن ينشد الإمارة ولو على الحجارة ...

* * *

يا لهذه الصرخات الداعية في أذن الصحراء من حناجر فتيان هذه الأمة!

يا لَبكر ... ! يا لَتغلب ! يا لَمضر ! يا لَربيعة ! يا لَعدنان ! يا لقحطان ! يا لكل قبيلة على كل قبيلة !

وسباع الأرض وهوامها وحشاشها، وعقبان السماء ونسورها، تتسمع إلى هذه الصيحات وتتبعها؛ لأنها أبواق دعوتها إلى الولائم التي تقام من الدماء التي تَشْخَب، والبطون التي تبقر، والأكباد التي تُفرى، والقلوب التي تسحق، والعيون التي تفقأ، والأشلاء التي تتناثر ...

فكم من قلب كبير لبطل كريم في فم ذئب لئيم ... !

وكم من لسان فصيح بليغ في منقار غراب بكيء منكر الصوت قبيح المرآة ... !

وكم من عين نجلاء صافية تحت خنفساء قذرة وعقرب عمياء!

ثم يصحو الذين نحروا الجزور وشربوا الخمور وأنشدوا الأشعار وهتفوا وصرخوا بدعوى الجاهلية، ويستيقظون بعد ابتراد النشوة وذهاب الحميّة وسكون الثَّرَة، ويعودون إلى الخيام يسمعون البوم والخفافيش وندب النساء وعويل الأطفال على الجثث الطريحة على الشراجع والنمُوش ...

والتلول واقفة تقهقه فيذهب صوتها كصرخات مقزعة في شعاب الجبال وبطون الوديان وأغوار الكهوف ...

ثم يسمع لقهقهتها صدى بعيد من حناجر الشباب الهاتفين: إلى الحرب ...

إلى النظام من الحب ونسيم السلم وقرار الأمن ...

إلى الثأر من الذين قتلوا الآباء واستحلوا الحرمات ...

ثم تدور الرحى على أمواج الرمال وضفاف بحار السراب والآل فيلتقي رجل برجل «تحيةُ بينهم ضربٌ وجيع»

ثم ترقص الحرب عارية حمراء، تنوس على الآفاق ذوائبها السود وغدائرها التي نسجت من ريح السموم ... !

* * *

وتحولت الأمة العربية تحت سحر هذه النول إلى أمة من الأحطاب ... لا تنوهج عناصرها وتظهر عبقرياتها الكامنة إلا إذا مسّتها النار برهة تستحيل بعدها إلى رماد وهباء منثور تذروه الرياح على وجه الصحراء أرض الفناء والصمت الذي لا يخرقه إلا صرخات هذا الإنسان الضائع الفريد ...

أما النمو والإيراق والإزهار والإثمار فتلك أدوار لم يكن لشجرة الأمة العربية منها نصيب كبير ... وأنى للأخشاب والأحطاب أن تثمر وأن يكون فيها مناطق نمو؟ لقد أوشك الجفاف المادي والمعنوي أن يميت جذور هذه الشجرة العظيمة العريقة فاحتبس عنها فيض السماء وسيح الأرض مدة جعلت لبابها يوشك أن يموت ويقسو كالأحجار أو يكون أشد قسوة

ولكن الله رب الطبيعة وموزع إنسانها وحيوانها ونباتها على بقاعها بقدر موزون، ومخرج الحي من الميت ومفجر العيون الثرارة من قسوة الحجارة ... كان يصنع هذه الأمة هكذا تحت عوامل الحرمان والقسوة والجفاف والجهالة ليصنع منها معجزته الأخيرة ويخرجها فجأة على إنسانية الشرق والغرب الناعمة المتبلة الغنية بموارد الخصب والمال وأفانين الحكمة والجمال كما يخرج الفجر الصادق الوضاح من ظلمة الليل البهيم ... ليعلم الإنسان أن عقله وقلبه في قبضة الذي «الأرضُ جميعاً قَبْضَتُهُ والسموات مطويات بيمينه ...» الذي يجلو بياض النهار وينسخ سواد الليل ويحيي الأرض بعد موتها ويحول بين المرء وقلبه ... الذي وضع قوانين الطبيعة وإن شاء خرقها: فهو لا يخضع لها كما يخضع أبناء العجز والفناء ...

فقال للفجر الصادق في حياة الإنسانية: ابزغ من هنا — من أفق هذه العقول المحرومة من هدى النبوات وإرشاد العلوم، واسطع من هذه السماء التي لا ينظر إليها أحد من عبّاد دنيا الروم وفارس والمفتونين بعلوم اليونان ... وأشرق من أرض الأوثان على المساجد والمطاعم والبيَع والصوامع «لئلا يعلمَ أهلُ الكتاب ألاّ يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضلَ بيد الله يؤتيه من يشاء»

وقال للنهر الدافق مخصب العقول البشرية: تفجر من هنا. من هذه الرمال الظامئة والجبال الكزّة القاسية، من غير نطفة واقفة